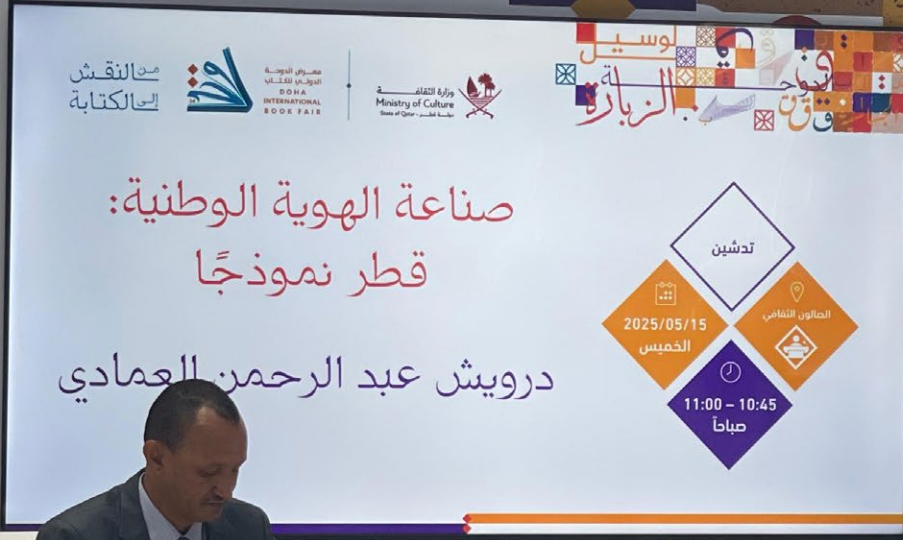


حوار مع مؤلف:



الأستاذ الدكتور درويش عبد الرحمن العمادي،

مستشار رئيس جامعة قطر سابقاً، مؤلف كتاب «صناعة الهوية الوطنية: قطر نموذجاً - نظرة تاريخية اجتماعية اقتصادية سياسية».

«تعد الهوية من القضايا التي برزت على الساحة الوطنية والإقليمية والدولية وخاصة مع بروز الدول الحديثة في إطار من تجدد الصراعات العرقية والطائفية وموجات الهجرات إلى دول الشمال وخاصة أوروبا»، جاء هذا التعريف في مقدمة كتاب «صناعة الهوية الوطنية: قطر نموذجاً - نظرة تاريخية اجتماعية اقتصادية سياسية»، لتتعمق أكثر في موضوع الهوية الوطنية في دولة قطر، نتنقل بين صفحاته برفقة مؤلفه الأستاذ الدكتور درويش عبد الرحمن العمادي، عضو هيئة التدريس بجامعة قطر لأكثر من أربعة عقود.

الماجستير، أصبح جلياً بأن المكتبة القطرية بحاجة إلى المزيد من البحث في مسألة الهوية الوطنية، كما أنني لمست من الدارسين بالبرنامج مدى حرصهم وشغفهم بهذه القضية رغم اختلاف تصوراتهم عنها. فعلى سبيل المثال طلبت من الدارسين تعريف هويتهم بكلمة أو اثنتين. فكانت الإجابات متباينة: بعضها تشير إلى الصفات الشخصية مثل المروءة أو الكرم، وبعضها تشير إلى هويات جماعية عابرة للقارات، وبعضها تشير للدين مثل «مسلم» أو أخرى تشير إلى القومية مثل «عربي»، أو غيرها تشير إلى القبلية مثل «أنا من البوكر» أو «من الهواجر» وعدد لا بأس من الدارسين عرف نفسه بأنه «قطري» وآخرون «قطري عربي مسلم». فشرعت في هذا الكتاب لعله يكون مرجعاً أكاديمياً للباحثين في مجال الهوية بصورة عامة، وفي مجال الهوية القطرية بصورة خاصة.

ما هو تعريفك للهوية الوطنية:

«الهوية» لفظ مشتق من الضمير «هو»، إشارة يُحيل إلى «الآخر»، لا إلى «الأنا». أي أن الهوية تثبت الآخر قبل أن تثبت الأنا. ولا يُمكن أن نعرف من نحن في غياب الآخر. بمعنى أنني عندما أعرف نفسي ضمن مجموعة معينة مثلاً «مسلم» فإنني بداية أُميز مجموعة من الفئات المماثلة من حيث خصائص التكوين لهذه الجماعة. فهناك (في مخيلتي منذ البداية) جماعات أخرى مماثلة لجماعة المسلمة ومختلفة عنها مثل «مسيحي»، «بوذي»، «هندوسي»، «ملحد». إلخ، لأن من غير هذا الاختلاف فلا معنى لتعريف الجماعة بأنها «مسلمة» من حيث البعد الهويّاتي.

والهوية في صورتها المجردة هي مجموعة خصائص تميز فرداً أو مجموعة من الناس عن الآخرين. وبغياب هذه الخصائص لا يمكن أن نُميز الشخص أو الجماعة عن الآخرين. ولكن هذا التعريف يقف عاجزاً عن تحديد ما إذا كانت الهوية ثابتة أم متغيرة؟ وهل مصطلح الهوية مساوٍ للشعور بالانتماء أو أن أحدهما جزء من الآخر؟ وأي جزء هو الأصل الذي ينبثق منه الجزء الآخر؟ هل ممكن أن توجد هوية في غياب الآخر؟

ولذا نجد أن الأسئلة المرتبطة بالهوية لا تتسم بالوضوح دوماً. فالهوية فردية كانت أم جماعية، تشبه جسمًا ذا أبعاد متعددة وأضلع كثيرة مثل البلورة، لا يُمكن رؤيتها مجتمعة في ذات الوقت. «إننا غالباً ما نرى ضلعاً واحداً على انفراد، وجزئياً نرى أضلعاً مجاورة، وتبقى الأوجه الأخرى مخفية كلياً. الذي يكُون جوهر الشيء، ويُنسَق الأضلع يظل مخفياً». وبهذا المعنى تكون هوية الفرد أو الجماعة أكبر من مجموع صفاتهما، مثل البلورة التي هي أكبر من مجموع أضلعها. ونظراً لتغيّر الإنسان وتطوره في مختلف مراحل حياته فإن الأمر يكون أكثر صعوبة في تحديد الأضلع من البلورة الجامدة.

بداية دكتور درويش، كيف تقدم نفسك لقرأ مجلة جامعة قطر للبحوث؟

أنا الدكتور درويش عبد الرحمن العمادي، تخرجت من جامعة إدنبرة في يناير 1986 في مجال اللغويات الاجتماعية، وعملت في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة قطر، وشغلت عدة مناصب قيادية، منها عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، والمدير المؤسس لمعهد البحوث الاجتماعية والاقتصادية المسحية (SESRI)، ورئيس الاستراتيجية والتطوير. واصلت عملي في جامعة قطر حتى تقاعدي في عام 2022.

ما هي قصة تأليف الكتاب؟

لكل كتب قصة وبداية، ولا يختلف هذا الكتاب عن غيره في هذا الجانب. عندما شرعت في تدريس مقرر الهوية الوطنية للدارسين في برنامج الدفاع الوطني بأكاديمية جوعان بن جاسم للدراسات الدفاعية والأركان المشتركة على مستوى

ولا تُعدُّ الهوية منظومة مكتملة البناء سواء للفرد أم الجماعة بل مشروعاً مفتوحاً ومنفتحاً على المستقبل. أي أن الهوية تتشكل بتغير الظروف والمعطيات، وإن هذه الديناميكية في تفاعل مستمر، تتغير اتساعاً وضيقاً بحسب الظروف التي تمر بها الجماعة أو الدولة أو القبيلة.

إن الهوية الوطنية عبارة عن بنية نفسية اجتماعية تسهم في تحقيق الأمن النفسي والاستقرار الانفعالي للإنسان من خلال تعزيز شعوره بالمكانة والاحترام والكرامة المرتبطة بالصورة الإيجابية عن الذات الجماعية؛ ولها علاقة وثيقة بعملية إنتاج وإعادة إنتاج وتفسير دائم للرموز والقيم والذكريات والتراث الذي يُميز مجتمعاً معيناً عن الآخر. وترتبط الهوية الوطنية بالوطن مثلما ترتبط الهوية الجماعية بالجماعة، والهوية القبلية بالقبيلة، والهوية الدينية بالدين، بمعنى أن تحديد الوطن المعني من أساسيات تحديد الهوية الوطنية، ويختلف التعريف باختلاف الموقف والسائل والمؤلف لأن الهوية الوطنية هي هوية جماعية وليست فردية وهي تتأثر بعوامل مكانية وزمانية بعضها تكون شائعة للفرد والعديد منها تكون غير واضحة المعالم، ولكن يمكننا أن نقدم التعريف الآتي: **الهوية الوطنية أساسها الولاء والانتماء للوطن ويُستمد ذلك من مجموعة خصائص وقواسم مشتركة من ذاكرة تاريخية، باعتبارها مجموعة الخصائص والقيم من لغة وأدب ودين وقانون وبناء سياسي ومحيط اجتماعي وخصوصية ثقافية وحدود جغرافية، وهي عناصر تكونت عبر الأجيال، وهي الأساس الذي يفرق بين «نحن»، و«هم» الآخرين سواء كانوا يختلفون عنا كلياً أم جزئياً حسب الظروف والمصلحة الوطنية.**

ما هي التساؤلات التي يحاول الكتاب الإجابة عليها؟

يُعدُّ هذا الكتاب محاولة للإجابة عن عدد من التساؤلات الأساسية، ومنها:

- ما طبيعة العلاقة بين مفهوم «الهوية» بالأصل الذي نبعت منه، وبأشكال الهوية المختلفة، الوطنية منها، والعربية، والخليجية، والإسلامية، والعالمية؟
- ما أهم الأحداث التاريخية التي أسهمت في تشكيل الهوية القطرية؟
- ما أهم العوامل الاجتماعية التي أسهمت في تشكيل وتعزيز الهوية الوطنية القطرية؟
- ما أثر المنظومة التعليمية على الهوية القطرية؟
- هل ما تزال القبيلة لاعباً رئيساً في معادلة الهوية الوطنية في المجتمع القطري؟

- ما العوامل التي تُشكل تحديات للهوية الوطنية بدولة قطر؟
- ما الاستجابات المطلوبة لمواجهة التحديات التي تجابه الهوية الوطنية القطرية؟

ونظراً للمساحة المتاحة في هذا اللقاء فإنني سوف أُجيب على جانب من التساؤلات السابقة وللقارئ العودة للكتاب للمزيد من التفصيل.

ما أثر المنظومة التعليمية على الهوية القطرية؟

يُعدُّ التعليم كمنظومة من أهم المؤسسات الرسمية التي يتحكم فيها المجتمع والسلطة في طبيعة ومحتوى الرسائل التي تُبثُّ للدارسين، وهي مرحلة طويلة نسبياً من حياة الفرد، ومن أهم مراحل نموه، لا سيما أنه يدخل المرحلة في عمر 5 سنوات ولا يخرج منها إلا وقد بلغ رشده وتكوّن لديه الميول والاتجاهات السلوكية والفكرية، ومن هنا يمكننا القول بأن المؤسسات التربوية قد عملت في دولة قطر ودول العالم بصورة عامة وما زالت - إضافة إلى إكساب التلاميذ المعارف والمعلومات - إلى غرس القيم والاتجاهات التي تُمكنهم من المشاركة في شؤون مجتمعهم وتطويره وكذلك على تأكيد دور السلطة الشرعية في بناء الدولة وتنميتها والمحافظة على استقرارها، الأمر الذي يُعزز لديهم الوعي بحقوقهم ومسؤولياتهم نحو وطنهم والولاء له ولسلطاته الشرعية والدفاع عن وحدة الوطن.

وتتم عمليات التدوير وإعادة البرمجة في المنظومة التعليمية بصورة ممنهجة ومستمرة وتراكمية من دون ضغوط حقيقية على المتلقي، ونظراً لكونها مستمرة لسنوات عديدة، وأحادية الجانب في التأثير، فإن الفرد في نهاية المطاف عند خروجه من هذا المصنع يكون نسخة من رؤية النخب الحاكمة في تصوّره للأحداث والأمور من حيث الأهمية أو الخطورة، ومن حيث كونها مقبولة أو غير مقبولة. وهذا لا ينفي أن للأسرة (المجتمع الصغير) دوراً أيضاً في بناء الاتجاهات، والقيم، والمعتقدات وأن الفرد ربما يُغير هذه الاتجاهات والمعتقدات والقيم في مراحل متقدمة من العمر حسب الخبرات التي يمر بها، ولكن الرأي الغالب أن للمدرسة دوراً وأثراً كبيراً على شخصية الفرد ليس فقط من خلال المعارف التي يحصل عليها، بل - والأهم - من خلال الخبرات والمواقف التي يتعرض لها خلال مسيرته التعليمية. لهذا ذهب البعض إلى القول إنه يجب أن تصوغ المنظومة التعليمية أهدافها للسياسات التعليمية من المقومات الأساسية للمجتمع المنبثقة من ثقافة المجتمع وتوجهاته الدينية وخلفيته التاريخية، بحيث تسهم في تكوين هوية متوافقة مع فلسفة المجتمع وتوجهاته.

ما الرسالة الأساسية التي تود أن تصل إلى القارئ بعد الانتهاء من كتابك؟

إننا نعيش اليوم في عالم تتحكم فيه التكنولوجيا في تشكيل قيمنا ومفاهيمنا وفي علاقتنا الاجتماعية وطريقة التواصل. من خلال تيار أحادي الجانب متدفق بسرعة متزايدة.. وليس من الحكمة والعقل الانزواء بحجة خطورة هذه التكنولوجيا ومقاطعتها بغية تجنب الأعراض المصاحبة لها. كما أنه فعلياً يستحيل تجنب هذه التكنولوجيا لأنها اخترقت كل مناحي الحياة في الوقت الراهن ومعرضة للمزيد في المستقبل. ولكن العقل هو أن نتعامل معها بعقلها لا بعقل الأجيال السابقة، وهذا يتطلب أن نرسخ القيم المجتمعية النابعة من مصادر ديننا وتراثنا. كما أنه يتطلب أن يكون تواجدها في هذه التكنولوجيا تواجداً إيجابياً تساهم فيه بصورة إيجابية بدل أن نكون في جانب المتلقي طوال الوقت.

وقد عملت المدرسة دوماً على إيجاد توازن بين الغايات التربوية والتحوّلات المجتمعية في جميع مراحل تطوُّر ونمو المجتمع، ولذا نجد أن إعادة النظر في مناهج ومحتويات المقررات لا تقتصر على الجانب المعرفي فقط، بل تتطرق أيضاً إلى المستجدات الاجتماعية. وخير دليل على ذلك ما لمسناه من إضافة دروس عن الحصار الذي تعرضت له الدولة في 2017 وانعكاس ذلك في مناهج المواد الاجتماعية للمرحلة الإعدادية. ونظراً لأهمية الهوية الوطنية في سياق بناء الدولة فقد طُرِح مقرر باسم التربية الوطنية منذ السنوات الأولى للتعليم الرسمي، وكانت الغاية الرئيسة منه تعزيز الهوية الوطنية في الدولة الحديثة، ومؤخراً أُضيف جزء خاص بالمواطنة في مقرر المواد الاجتماعية. وهذا التغيير له مدلولات ضخمة في علاقة هذه المناهج بالهوية الوطنية. وتُشكّل الممارسات اليومية للتلاميذ من ترديد النشيد الوطني في الطابور الصباحي، والمشاركة في الأنشطة التطوعية في المجتمع، والالتزام بالزي الوطني تجسيداً لهذا التوجه.

